

مَجْمُوعَةُ رَسَائِلِ

لَا عَوِيذَ إِلَّا بِكَ مِنْ هَاجِسَاتِهِ

دَعْوَةُ التَّوْحِيدِ وَتَهْذِيبُ الْمَغْرُضِينَ
الْإِجْتِمَاعِ وَتَبْيَاضُ الْفَرْقَةِ
ظَاهِرَةُ التَّبْدِيعِ وَالتَّكْفِيرِ وَالتَّفْسِيقِ
الْأَسْتِهْزَاءِ بِالذِّبْنِ
حَقِيقَةُ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ
أَسْبَابُ بَحْثِ كَاةِ الْأُمَمَةِ
تَأْمَلَاتُ فِي أَوَاخِرِ سُورَةِ الْأَحْزَابِ
الْأَيَّامُ وَيَعْنُ صُورَةُ الْمَعَاصِرَةِ
نَصِيحَةُ خَاصَّةٍ بِالْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ
التَّكْفِيرُ وَصَوَابُهَا
الْجَهَادُ وَصَوَابُهَا
الْفَيْسَةُ الصَّائِلَةُ وَمِنْهَا جَهَا
شَرٌّ مِنْهُ إِنْ كَانَ فِي جَاهِلِيَّةٍ
الْمُحَقَّقُ الْوَلَجَةُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ
تَوْجِيهَاتُ مَهْمَةٍ لِلشَّيْءِ
السَّحَرُ وَالشَّعْوَودَةُ
مَكَانَةُ الْمَرْأَةِ فِي الْأَسْلَامِ
صِفَاتُ الدَّاعِيَةِ السَّاجِحِ

لِقَالِي الشَّيْخِ الرَّكُّوْرُ

صَاحِبِ بِنْتِ زَوَارِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْفَزَارِي

جَمْعُ وَاعْتِدَادُ

أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَادِلِ بْنِ عَبْدِ الْغَفَرِ

مَكْتَبَةُ بَيْتِ الشَّيْخِ

نَاشِرُونَ

دعوة التوحيد

وسهام المغررين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على نبينا مُحَمَّدٍ وعلى آله وصحبه أَجْمَعِينَ .

العنوان كما سمعتم :

«دعوة التوحيد وسهام المغرضين»

التوحيد : هو إفراد الله - جل وعلا - بالعبادة بأن يجعل المعبود واحدًا ، هذا هو التوحيد ، وحده توحيدًا ، أي : جعل المعبود واحدًا ، ولهذا لما قال النبي ﷺ لأهل مكة : «قولوا : لا إله إلا الله . قالوا : أجعل الآلهة إلهاً واحداً؟»^(١) .

وهذا هو الذي خلق الله الخلق من أجله ، قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥١ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ۝٥٢﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿ [الذاريات : ٥٦-٥٨] .

فالحكمة من خلقه سبحانه للخلق - للجن والإنس - ليامرهم بعبادته : ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي : إلا لآمرهم بعبادتي .

(١) انظر تمام القصة في : سنن الترمذي (٨/ ٣٦١ ، ٣٦٢) ، برقم (٣٢٣٠) ، ومسند الإمام أحمد (١/ ٢٢٧ ، ٢٢٨) برقم (٢٠٠٨) ، والمستدرک للحاكم (٢/ ٤٣٢) كلهم من حديث ابن عباس ؓ .

ومصلحة ذلك راجعة إليهم ، فإنَّهم إذا عبدوا الله وحده ، فإن ذلك
ينجيهم من عذاب الله ، ويدخلهم الجنة ، ويدر عليهم الخير في الدنيا
والآخرة .

فمصلحة العبادة ليست راجعة إلى الله ؛ لأن الله غني عنهم وعن
عبادتهم ، ولو كفروا جميعًا ما نقصوا من ملكه شيئًا ، ولو أطاعوا جميعًا
لَمْ يزدوا في ملكه شيئًا .

قال موسى ﷺ لبني إسرائيل : ﴿ إِن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا
قَاتِلَ اللَّهُ لَعْنَتُهُ جَمِيعًا ﴾ [إبراهيم: ٨] .

وقال الله - جل وعلا - في الحديث القدسي : «يا عبادي ، لو أن
أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد
منكم ، ما زاد ذلك في ملكي شيئًا ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم
وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك من ملكي
شيئًا»^(١) .

فإن الله غنيّ عنا وعن عبادتنا ، وإنَّما نحن المحتاجون إلى عبادة الله
لتقربنا إليه ؛ ولأجل أن تصلنا بربنا ﷻ وتعرفنا به ، فنحصل على السعادة
في الدنيا والآخرة .

والله - جل وعلا - أمرنا بعبادته لمصلحتنا ، ولدفع المضرة عنا ،
هذه الحكمة من الأمر بعبادته ﷻ ، وضد التوحيد هو الشرك بالله ﷻ .

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه برقم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

والشرك: هو عبادة غير الله مع الله، بأن يجعل شيئاً من أنواع العبادة لغير الله ﷻ كالذبح، والنذر، والدعاء، والاستغاثة، والخوف والخشية، والرجاء . . . وغير ذلك .

فإذا جعل شيئاً من أنواع العبادة لغير الله فهذا هو الشرك؛ لأنك جعلت لله شريكاً في عبادته، وأول ما حدث الشرك في الأرض في قوم نوح حينما غلوا في الصالحين .

كان الناس في الأول على التوحيد من عهد آدم ﷺ إلى قوم نوح كانوا على التوحيد، وكان في قوم نوح رجال صالحون علماء عباد يُحبونهم حباً شديداً، فماتوا في عام واحد فحزن عليهم قومهم، فجاء الشيطان إليهم، وقال لهم: صوروا صورهم، وانصبوها على مجالسهم من أجل أن تتذكروا العبادة إذا رأيتم صورهم .

جاءهم من طريق النصيحة والتشجيع على الخير، ولم ينظروا إلى العواقب، ولم يفتنوا لكيد عدوهم، فأطاعوه .

فكان ظاهر هذا الأمر أنه خير؛ لأن المقصود منه هو نشاطهم على العبادة، بعد ذلك لم يحدث الشرك في أول نصب هذه الصور؛ لأن فيهم علماء، ولم يتجاسر الشيطان على أن يقول لهم: إن هذه الصور تنفع وتضر؛ لأن العلماء ينكرون هذا .

فلما مرت مدة، ومات العلماء في قوم نوح فلم يبق فيهم علماء، ونسخ العلم، ولم يبق إلا جهلة، فجاء الشيطان إليهم فقال: إن آباءكم ما نصبوا هذه الصور إلا ليعبدوها، وبها كانوا يسقون المطر .

فدخل ذلك في عقولهم لجهلهم ، ولم يكن هنا من العلماء من يرد هذه الشبهة ، وهذا الشرك ، فهذا أول سهام المغرضين على التوحيد فعبدوهم من دون الله -أي : هذه الصور-^(١) .

فبعث الله نوحًا -عليه الصلاة والسلام- فيهم يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وترك عبادة هذه الأصنام ليردهم إلى الأصل الذي خلقوا من أجله ، وهذا من رحمة الله ﷻ بعباده أنه لا يتركهم بأيدي عدوهم ؛ بل يرسل إليهم من ينبهم ، وينقض الشبهات التي تروج بينهم .

هذا من رحمة الله بعباده أنه يرسل الرسل ، وينزل الكتب ، لبيان الطريق الصحيح الموصول إلى الله -جل وعلا- والذي يبين الشرك وطرقه ووسائله ، فلم يترك عباده هملاً ، ولم يتركهم للشيطان .

ولذلك أرسل الله نوحًا -عليه الصلاة والسلام- يدعوهم إلى الله ﷻ ، ويردهم إلى الأصل الذي هو التوحيد الذي خلقوا من أجله ، فلبث فيهم كما قال ﷻ : ﴿ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [العنكبوت: ١٤] .

انظر إلى الشر إذا دخل في القلوب صعب إخراجها ، والشبه إذا تغلغت صعب مقاومتها ألف سنة إلا خمسين عامًا ونبي الله ورسوله -عليه الصلاة والسلام- يعاني من هذه المشكلة ويعالجها ، ويدعو إلى الله ﷻ كما ذكر الله ذلك في كتابه .

ومن ذلك : ما ذكره في سورة نوح كاملة في قصة نوح مع قومه ، قال

(١) انظر : صحيح الإمام البخاري برقم (٤٩٢٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١١﴾ قَالَ يَفْقَهُمْ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ١٢ ﴿١﴾ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ١٣ ﴿٢﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَوِّضْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ [نوح: ١-٤].

هكذا كان يدعوهم إلى الله بالحُجج والبراهين وبالملاطفة واللين والموعظة؛ لعلهم يستجيبون.

ثُمَّ إِنَّهُمْ زَادَ شَرَهُمْ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ٦ ﴿١﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ فِي عَادَاتِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ٧ ﴿٢﴾ [نوح: ٥-٧]. لَا يُحِبُّونَ أَنْ يَسْمَعُوا صَوْتَ رَسُولِ اللَّهِ، ﴿وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ تَلْفَعُوا بَشِيَابَهُمْ لثَلَا يَرَوْا نَبِيَّ اللَّهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - كَأَنَّهُ عَدُو لَهُمْ: ﴿وَاصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ اسْتَكْبَرُوا عَنْ دَعْوَةِ الْحَقِّ فَلَمْ يَقْبَلُوهَا.

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ٩ ﴿٣﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ١٠ ﴿٤﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ١١ ﴿٥﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِي وَجَنَّتْ لَكُمْ جَنَّتٌ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ١٢ ﴿٦﴾ [نوح: ٨-١٢].

انظر إلى الدعوة إلى الله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]. ما لكم لا تعظمون الله ﷻ وتوقرونه؛ لأن الشرك تنقص لله ﷻ؛ حيث سويت به من لا يساويه، وعبدتم معه من خلقه من هو مثلكم؛ بل أنتم أقدر من الأموات، أنتم تمشون وتكتسبون، وهم أموات في القبور.

﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ١٤ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ

سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أُنَبِّتُكُمْ
مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ
بِسَاطًا ﴿١٩﴾ [نوح: ١٣-١٩].

ذكرهم بآيات الله الكونية، ونعمه الظاهرة والباطنة، أما هؤلاء
الأموات ماذا قدموا لكم، خلقوا السموات؟ خلقوا الأرض؟ أدروا
عليكم الأرزاق؟ أنزلوا عليكم المطر؟ بأي شيء تتعلقون بهم؟ ﴿وَاللَّهُ
أُنَبِّتُكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ
الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٧-٢٠].

وَلَمَّا لَمْ يَوْثَرْ فِيهِمْ هَذَا كُلُّهُ : ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّهُمْ عَصَوْنِي وَأَتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدَّهُ
مَالُهُ وَوْلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح: ٢١].

تركوا رسول الله، واتبعوا دعاة الشرك، وسهام المغرضين :
﴿وَأَتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدَّهُ مَالُهُ وَوْلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا كِبَارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا
تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢١-٢٣].
هؤلاء هم الرجال الصالحون الذين ماتوا، وصوروا صورهم، وهذه
هي أسماءهم.

تواطئوا بأن يبقوا على عبادة الأصنام، وأن يرفضوا دعوة التوحيد،
وأن يطيعوا دعاة الضلال، ويرفضوا دعوة التوحيد، ودعاة التوحيد،
وتواصوا بهذا، وهذه كلمة يقولها الكفار والمشركون في وجه دعوة
الأنبياء على مدار التاريخ يقولون - كما قال قوم نوح - : ﴿أَيْنَا لَنَارِكُوا
ءَالِهَتَنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٦].

﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ يعني : الشرك ليس عجباً والتوحيد عجاب؟! ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِئَلَةِ الْآخِرَةِ﴾ يعني : في ملة آبائنا .
﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا آخِلَاقٌ﴾ [ص: ٥-٧] .

أي : كذب ، فالذي يدعو إلى الشرك هو الصادق والرسول الذي يدعو للتوحيد كاذب؟! هكذا العقول إذا مرجت تتصور الحق باطلاً ، والباطل حقاً ، والعياذ بالله يجعلون الرسول كاذباً وهو أنصح الخلق ، وأعلم الخلق ، يجعلونه كاذباً ، ويجعلون دعاة الضلال ودعاة الشرك صادقين وناصحين ، هكذا إذا أعمى الله البصيرة ، فإن هذا ما يصدر عنها ، وتواصوا بهذا في مختلف الأمم : ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأُنْشِئْنَا مَا بَعْدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠] .

دعاهم لعبادة الله وحده ، فقالوا : مستحيل أن نترك عبادة الأصنام ، وهكذا الشر ، وهكذا الأفكار الخبيثة إذا عشعشت في الرؤوس ، وتأصلت في القلوب ، فإنه يصعب اقتلاعها خصوصاً من تمرس في الشر ، وتمكن منه الشر ، فإنه صعب علاجه .

أما من كان فيه بقية من حياة أو فطرة ، وأتى الأمور عن جهل ، فإنه يُرجى إذا بُيِّن له الحق أن يتقبله ، لكن من تَمَادى في الضلال فإنه لا يتراجع أبداً ؛ ولكن هذا لا يعني أن نترك الدعوة ؛ بل ندعوه إلى الله ، وإن تَمَادى لأجل إقامة الحُجة عليه ، ولأجل إبطال شبهته ، ولأجل ألا يغتر به الآخرون .

فنحن لا نترك بيان الحق، وإن كان كثير من الناس لا يقبلونه؛ بل نبين الحق، فمن قبله؛ فالحمد لله، وهذا هو المطلوب، ومن لم يقبله؛ فإننا نقيم الحجة عليه، ونبرئ ذمتنا، قال تعالى: ﴿لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْدَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّنَا وَلَعَلَّهُمْ يَنْقُوتُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

فطريقة المشركين أنهم لا يريدون أن يتزحزحوا عن شركهم، قال تعالى: ﴿أَجِئْنَاكَ لِتُفَنِّتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨].

قالوا ذلك لموسى وهارون عليهما السلام قالوا: أنت جئت لتلفتنا عن إلهتنا، فأنت تريد الكبرياء والرئاسة علينا: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤]. هكذا يتهمون الرسل -عليهم الصلاة والسلام-.

فلا تستغربوا إذا اتهم الدعاة في شيء من هذا فقد اتهم الرسل -عليهم الصلاة والسلام-: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨].

بل إن فرعون قال: ﴿ذُرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

انظر جاءهم عن طريق النصيحة، وأن موسى سيبدل دينهم! ويظهر في الأرض الفساد! الشرك يسمونه «ديناً» مع أن الدين الصحيح هو التوحيد؛ لكن سَمُوا الشرك ديناً، وهو دين باطل، ودين الحق هو

التوحيد الذي خُلق الخلق من أجله .

وقال قوم فرعون: ﴿أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] . فوصفوه أنهم يفسدون في الأرض، فوصفوا الأنبياء، والعلماء، والصالحين، بأنهم يفسدون في الأرض ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ .

هكذا جلساء السوء، وهكذا بطانة الشر يشيرون على الملك، أو الرئيس، أو على ولي الأمر بأن يعرض عن دعوة الحق، وأن يبعد دعاة الحق؛ لأنهم - كما زعموا - مفسدون في الأرض، فيسمونهم مفسدين في الأرض؛ لأن فطرهم فاسدة، أو لأنهم يريدون صرف الناس عن دعوة المصلحين، فيصفون المصلحين بالمفسدين في الأرض، فهذا في كل زمان ومكان، وهذه من سهام المغرضين ضد دعوة التوحيد في كل زمان ومكان .

المشركون الذين يعبدون الأصنام ما كانوا يعتقدون أنها تخلق، أو ترزق، أو تُحيي، أو تُميت؛ لأنهم يعرفون أنها لا تقدر على ذلك، وأن هذا لا يقدر عليه إلا الله، قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١] .

وقال تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] .

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٣١] .

فهم يعترفون بتوحيد الربوبية، وأنه لا يقدر على شيء من الخلق إلا الله، وأن أصنامهم لا تقدر على شيء من ذلك، إذن لماذا عبدتموهم؟ قالوا: ﴿شَفَعْتُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

لَمْ نَعْبُدْهُمْ لِأَنَّهُمْ يَخْلُقُونَ وَيَرْزُقُونَ أَوْ يَدْبِرُونَ؛ لَكِنْ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ، وَسَطَاءَ عِنْدَ اللَّهِ يَتَوَسَّطُونَ لَنَا عِنْدَ اللَّهِ، هَلِ اللَّهُ أَغْلَقَ بَابَهُ عَنْ دَعَائِهِ وَعَنْ عِبَادِهِ حَتَّى يَحْتَاجَ إِلَى وَسْطَاءٍ؟ فَاللَّهُ فَتَحَ بَابَهُ لِلسَّائِلِينَ، وَيُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَاهُ، وَيُجِيبُ الْمَضْطَرَّ، وَيُعْطِي السَّائِلَ.

وَيُنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ: «هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأَعْطِيهِ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ؟»^(١). فَهَلْ هَذَا يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ وَسَائِطٌ؟ وَإِنَّمَا تَمُدُّ يَدَيْكَ لَهُ ﷺ بِقَلْبٍ حَاضِرٍ، وَتَطْلُبُ مِنْهُ مَا تَشَاءُ، فَاطْلُبْ مِنْهُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ؛ لِأَنَّهُ غَنِيٌّ كَرِيمٌ، فَلَا حَاجَةَ لَأَنْ تَجْعَلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ وَسَائِطَ.

أَمَّا مَلُوكُ الدُّنْيَا فَلَا تَتَوَصَّلُ إِلَيْهِمْ إِلَّا بِوَسْطَةِ شَفْعَاءَ، أَمَّا اللَّهُ -جَلَّ وَعَلَا- فَهُوَ سَمِيعٌ مُجِيبٌ قَرِيبٌ، يُجِيبُ مِنْ دَعَائِهِ لَيْلًا وَنَهَارًا، بَابُهُ مَفْتُوحٌ، يَسْمَعُ وَيَرَى ﷻ، لَيْسَ هُنَاكَ حَاجَةٌ لَأَنْ تَجْعَلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ شَفِيعًا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

(١) رواه الإمام البخاري في صحيحه برقم (١١٤٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أي : يشفعون لنا عند الله : ﴿وَالَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَولِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣].

إذن لماذا أنت لا تتقرب إلى الله زلفى ، هل الله بعيد عنك لا يسمعك ولا يراك؟! هل الله لا يعطيك إذا طلبت منه؟! هل الله أغلق بابك عنك؟!

هذا من شبهات الشيطان التي يلقيها في قلوب الناس ، وإذا تمكنت الشبهة من القلب صعب اقتلاعها .

وفي زماننا هذا عبّاد القبور مثل مشركي الجاهلية سواء بسواء إلا أن مشركي الجاهلية أحذق وأذكى منهم ؛ لأن الرسول ﷺ لما قال لهم : قولوا : لا إله إلا الله ، قالوا : ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ ⑤ وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿ص: ٥-٦﴾ .

فهم علموا معنى لا إله إلا الله أن معناها : أن تترك عبادة غير الله ، وأن يفردوا الله بالعبادة ، وهم لا يريدون ذلك ؛ بل يريدون أن يعبدوا معه غيره ممن يزعمون أنهم شفعاء ، وأنهم يقربونهم إلى الله زلفى .

أما عبّاد القبور اليوم ففيهم غباوة ؛ لأنهم يقولون : لا إله إلا الله ويعبدون غيره ، أما المشركون فأبوا أن يقولوها لثلاثا يتناقضوا بأن يقولوا : لا إله إلا الله ويدعوا غيره .

هذا تناقض ، وهم لا يريدون أن يتناقضوا فصمدوا على الشرك خشية التناقض ، أما البلهاء والمغفلون في هذا الزمان ، فيعبدون

الأموات والأضرحة، وهم يقولون: لا إله إلا الله، ويدعون الله بأنواع من الذكر بالليل والنهار، ويقولون: يا علي، يا حسين، يا عبد القادر، يا نقشبندي، يا فلان أغثني، أعطني، وهم يقولون: لا إله إلا الله، هذا تناقض!!

كيف تقول: لا إله إلا الله، وتدعو غير الله؟!... فالمشركون أبوا أن يقولوا: لا إله إلا الله خشية التناقض، وهؤلاء ما أنفوا من التناقض فهم يقولون: لا إله إلا الله بكثرة، ويشركون بكثرة، والعياذ بالله.

ولهذا يقول شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله لما ذكر هذه المسألة، قال: «لا خير في رجل كفار قريش أعلم منه بمعنى لا إله إلا الله^(١). فكفار قريش عرفوا معنى لا إله إلا الله وأبوا أن يلتزموه، وهؤلاء ما عرفوا معنى لا إله إلا الله، ولذلك يدعون غير الله، ويدبحون لغير الله، ولا يُسمون هذا شركاً؛ بل يسمونه بالتوسل، وقالوا: الله تعالى يقول: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥].

وقال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧].

فما هي الوسيلة؟ قالوا: هي الوسيلة فنجعل بيننا وبين الله واسطة، هذه هي الوسيلة، ففسروا الآية بغير تفسيرها، وبغير مراد الله تعالى منها،

(١) انظر: كتاب كشف الشبهات (ص ٤٩) بشرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان.

وهذا لم يقل به أحد من المفسرين أبداً .

فالوسيلة عند المفسرين^(١) : هي ما يقرب إلى الله ، والذي يقرب إلى الله ما هو؟ التوحيد والعمل الصالح .

هذا هو الذي يقرب إلى الله ﷻ ، وهذه هي الوسيلة الصحيحة ، وهي عبادة الله وحده لا شريك له ، هي الوسيلة والتوسل إلى الشيء : هو ما يتوصل به إلى الشيء ، والحبل يسمى وسيلة ؛ لأنه يستخرج به الماء من البئر فهو وسيلة .

فهل الذي يقرب إلى الله الشرك أم التوحيد؟ فالذي يقرب إلى الله تعالى هو التوحيد وعبادته وحده لا شريك له .

ومعنى : ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ أي : تقربوا إليه بالعبادة : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ أي : التقرب إليه سبحانه بالعبادة هذا معنى الوسيلة ، وليس معنى الوسيلة ما فسرها به القبوريون بجعل واسطة بينك وبين الله .

والتوسل : ذكر العلماء أنه أنواع ، فالتوسل على قسمين : توسل مشروع ، وتوسل مَمْنوع .

١- فالتوسل المشروع : أن تتوسل إلى الله - سبحانه - بأسمائه وصفاته ، قال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف : ١٨٠] .

(١) انظر : تفسير ابن كثير (٢/ ٥٠) ، ومعالم التنزيل (٣/ ٥١) ، وزاد المسير (٢/ ٣٤٧-٣٤٨) .

فنقول: يا غفور اغفر لي، يا رزاق ارزقني، اشفني أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، تتوسل إليه بأسمائه وصفاته ﷺ، وتتوسل إليه بالأعمال الصالحة التي تقربك إليه بدليل حديث الثلاثة الذين أوا إلى غار كما حَدَّثَ بذلك النبي ﷺ.

فقد روى الإمام البخاري في صحيحه، عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «خرج ثلاثة يمشون فأصابهم المطر، فدخلوا في غار في جبل، فانحطت عليهم صخرة، قال: فقال بعضهم لبعض: ادعوا الله بأفضل عمل عملتموه.

فقال أحدهم: اللهم إني كان لي أبوان شيخان كبيران، فكنت أخرج فأرعى، ثم أجىء فأحلب فأجىء بالجلاب، فأتي أبواي فيشربان، ثم أسقي الصبية وأهلي وامراتي، فاحتبست ليلة، فجئت فإذا هما نائمان، قال: فكرهت أن أوقظهما، والصبية يتضاغون عند رجلي، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهما حتى طلع الفجر، اللهم؛ إن كنت تعلم أنني فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فأفرج عنا فرجة نرى منها السماء، قال: ففرج عنهم.

وقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أنني كنت أحب امرأة من بنات عمي كأشد ما يحب الرجل النساء، فقالت: لا تنال ذلك منها حتى تُعطيها مائة دينار، فسعيت فيها حتى جمعتها، فلما قعدت بين رجلها قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه؛ فقامت وتركته، فإن كنت تعلم أنني فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فأفرج عنا فرجة، قال: ففرج عنهم الثلثين.

وقال الآخر: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرْقٍ مِنْ ذُرَّةٍ فَأَعْطَيْتَهُ، وَأَبَى ذَلِكَ أَنْ يَأْخُذَ، فَعَمَدْتُ إِلَى ذَلِكَ الْفَرْقِ فزَرَعْتَهُ، حَتَّى اشْتَرَيْتَ مِنْهُ بَقْرًا وَرَاعِيهَا ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ أَعْطِنِي حَقِّي، فَقُلْتُ: انْطَلِقْ إِلَى تِلْكَ الْبَقْرِ وَرَاعِيهَا فَإِنَّهَا لَكَ، فَقَالَ: أَتَسْتَهْزِئُ بِي؟ قَالَ: فَقُلْتُ: مَا أَتَسْتَهْزِئُ بِكَ، وَلَكِنِّهَا لَكَ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ، فَأَفْرُجْ عَنَّا، فَكُشِفَ عَنْهُمْ^(١).

فالتوسل إلى الله بالأعمال الصالحة الخالصة، والله - جل وعلا - يقول: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣].

فَاللَّهُ يُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ بِعِبَادَتِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ لِلَّهِ ﷻ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣-١٤٤].

هذه في قصة يونس ﷺ لَمَّا ابْتَلَعَهُ الْحُوتُ، وَصَارَ فِي الظُّلُمَاتِ، وَنَادَى رَبَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. فتوسل إلى الله بالتوحيد: ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ وتوسل باعترافه بظلمه وذنبه، فنجاه الله ﷻ.

وفي الآية الأخرى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ [الصافات: ١٤٣]. أي: من المصلين، فقد كان يونس ﷺ كثير الصلاة ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم (٢٢١٥) من حديث ابن عمر رضيهما الله عنهما.

يَوْمَ يُنْعَثُونَ ﴿[الصفات: ١٤٤]﴾. فَأُنْجَاهُ اللَّهُ بِسَبَبِ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ .

فهذا دليل على أن العمل الصالح يُنجي الله صاحبه إذا وقع في شدة، وهذا في قول الرسول ﷺ: «تَعَرَّفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرِّخَاءِ يَعْرِفَكَ فِي الشَّدَةِ»^(١).

فالتوسل إلى الله بالأعمال الصالحة هذا هو المطلوب، وهذا مشروع؛ قال تعالى عن عباده المؤمنين: ﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَرْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا أَرْسُولَ فَاكْتُتِبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣].

وقال: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

فتوسلوا إلى الله بإيمانهم بالرسول ﷺ: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلٌ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتُمْ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

فالتوسل إلى الله بالأعمال الصالحة ينفع صاحبه إذا وقع في شدة، فإن الله يفرج عنه شدته، وليس النجاة بالهتاف بالأموات، أو بالشياطين، أو الجن، كما عليه كثير من المسلمين اليوم الذين يدعون الإسلام -مع الأسف- إذا أصابتهم شدة لا يقولون: يا الله، بل يقولون: يا عبد القادر، يا فلان، يا حسين، يا علي، وينسون الله ﷻ.

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٣٠٧/١) برقم (٢٨٠٤)، وابن سمعون في أماليه (٢٢٣)، وابن بشران ضمن «مجموعة أجزاء حديثية» (١٢٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٧٤ و ١٠٧٥ و ١٠٠٠٠٠ و ١٠٠٠١)، والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (ج ٤، برقم ١٤)، من حديث ابن عباس ؓ. ورواه الترمذي وليس فيه الشاهد، (٣٧٨٤) وقال: «حديث حسن صحيح».

مع أن المشركين على شركهم في الجاهلية إذا وقعوا في شدة أفردوا الله بالدعاء، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

فإذا وقعوا في الشدة عرفوا أنه لا يُخلص من الشدة إلا الله، فأخلصوا الدعاء لله، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّكْرِينَ﴾ [الأنعام: ٦٣].

فالمشركون كانوا يُخلصون الدعاء لله في الشدة، أما الذين يزعمون أنهم مسلمون من القبوريين، وغلاة الصوفية، فإنهم إذا وقعوا في شدة يدعون غير الله، ويهتفون بأسماء الجن والشياطين والأموات: يا علي، يا حسين، يا عبد القادر، وهذا شيء معروف لا ينكرونه.

ولهذا يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمته الله: شرك هؤلاء أغلظ من شرك الأولين؛ لأن الأولين يشركون في الرخاء ويُخلصون في الشدة، وهؤلاء شركهم دائم في الرخاء والشدة؛ بل إن شركهم يزيد في الشدة - والعياذ بالله -^(١) وينسون الله تعالى، ولا يأتي ذكر الله على ألسنتهم؛ وإنما يجري ذكر معبوداتهم من دون الله تعالى.

فالأمر خطير جدًا، فالتوحيد ثقيل جدًا على كثير من الناس، والذي يدعو إليه يُنبذ ويتهتم، ويُرمى بأنه من الخوارج؛ لأن التوحيد عندهم هو عبادة القبور، والذي ينكر عليهم يُعد من الخوارج، هكذا يقولون.

(١) انظر: كتاب كشف الشبهات مع شرحها للشيخ صالح بن فوزان الفوزان (ص ٩٠).

فالخوارج هم الذين يَخْرَجُونَ على ولي الأمر، وَيُكْفَرُونَ المسلمين، أما الذي يدعو إلى التوحيد فهم خلاصة عباد الله، وهم الناصحون، وحملهم على هذا الإخلاص والمحبة للخير، والحرص على إنقاذ الناس من الهلاك، يتحملون من المشاق، ويتعرضون للأخطار، ويصبرون على الموت والتوبيخ والتهديد من أجل إنقاذ الناس من الظلمات إلى النور.

فهل هؤلاء يقال عنهم خوارج؟! بل هم الناصحون أتباع الرسل - عليهم الصلاة والسلام-، قال -عليه الصلاة والسلام-: «والعلماء ورثة الأنبياء، والأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»^(١).

كذلك من التوسل المشروع: أن تذكر حالتك وفقرك إلى الله ﷻ، كما قال أيوب عليه السلام - فيما قال الله عنه -: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

فتوسل إلى الله بحالته، وأنه مسه الضر الشديد وأعرض عنه الناس؛ لأنه أصبح لونه وجسمه منفراً من شدة المرض، فعند ذلك نادى ربه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

* فتوسل إلى الله بشيئين:

١- بأنه أرحم الراحمين.

(١) رواه أبو داود في سننه برقم (٣٦٤١)، ورواه الترمذي في سننه برقم (٢٦٨٣) كلاهما من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

٢- وبحالته التي بلغت إلى هذا الحد .

كذلك من التوسل المشروع : طلب الدعاء من الصالحين الحاضرين ، أن تطلب من عبد صالح حي حاضر أن يدعو لك ، أو يدعو الله للمسلمين ، فإن هذا من التوسل المشروع .

والدليل على ذلك : أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا إذا أجذبوا وأنحبس المطر ؛ طلبوا من النبي ﷺ أن يستسقي لهم ، وأن يدعو الله لهم أن يسقوا^(١) ، ولما مات النبي ﷺ وأجذبوا ؛ ذهبوا إلى العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ ، وقال له عمر رضي الله عنه : «اللهم إنا كنا نتوسل بنبيك فتسقينا ، وإننا نتوسل بعم نبيك فاسقنا ، فيقوم العباس فيدعو الله ، وهم يؤمنون ، فينزل الله المطر عليهم»^(٢) .

هذا توسل بدعاء الصالحين ، إذا كان عبداً صالحاً حياً حاضراً عندك يدعو لك هذا توسل مشروع لا بأس به ، فهذه أنواع التوسل المشروع .

٢- أما التوسل الممنوع : فهو جعل الوساطة بين الداعي وبين الله في قضاء حاجته ، هذا ممنوع ، وهذا ينقسم إلى قسمين :

القسم الأول : إذا كان يتقرب إلى هذه الوساطة ، ويذبح لها ، وينذر لها ؛ فهذا شرك أكبر يخرج من الملة ، كالذين يذبحون للقبور ، وينذرون لها ، ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، كحال المشركين الأولين .

(١) انظر : صحيح البخاري برقم (١٠١٧) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) انظر : صحيح الإمام البخاري (١٠١٠) من حديث أنس رضي الله عنه .

القسم الثاني : إن كان لا يتقرب إلى الوسطة بشيء من العبادة ؛ وإنما يدعو الله ويزعم أن هذه الوسطة تتوسط له عند الله ؛ فهذا بدعة ووسيلة إلى الشرك ، فلا بد من هذا التفصيل .

فالتوسل ليس كله شركًا ، وليس كله مباحًا ، فلا بد من هذا التفصيل ؛ لأن كثيرًا من المغرضين يلبسون الأمر ، ويقولون : أنتم متشددون ، أنتم خوارج ، أنتم تشددون على الناس ، ويقولون : هذا من التوسل والله أمر به بقوله : ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة : ٣٥] .

فينبغي أن يعرف هذا ، وأن العلماء يبينون للناس هذه الأمور ، ولا يتركون المغرضين يلبسون على الناس .

وأخيرًا : نسأل الله أن يرينا الحق حقًا ويرزقنا اتباعه ، ويرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه .

وصلّى الله وسلم على نبينا مُحَمَّد وآله وصحبه .

* * *

الأسئلة

س ١ : كثير من الناس إذا رأى مطوعاً يقول عنه إنه إرهابي ، فما تعليقكم وفقكم الله ؟

الجواب : هذا من سوء الظن بالمُسلمين ، فالمسلم فيه خير فيحسن به الظن ، إلا إذا حصل منه خلاف ذلك ، فهذا يُعالج في وقته وبما يناسبه .

أما أنه إذا ظهر عليه التمسك بالسنة والأعمال الصالحة يُقال عنه إنه إرهابي !! فالذي يقول هذا الكلام هو الإرهابي ، فالذي يتهم عباد الله الصالحين ويعيرهم بالتمسك ؛ هذا هو الإرهابي في الحقيقة .

س ٢ : من سهام المغرضين التي سَمَعناها في القنوات الفضائية أن سبب التفجيرات التي حدثت في بلادنا ، سببها كتاب «الدرر السنية» وفتاوى الشيخ مُحَمَّد بن إبراهيم رَحِمَهُ اللهُ فما ردكم على هذه الشبهة وفقكم الله ؟

الجواب : هذا من قديم الزمان ، فالمشركون يتطهرون بالأنبياء وأتباع الأنبياء ، ويقولون : لا يصيبنا شيء إلا بسبب هؤلاء .

فهذا قديم ، فالذي يقول عن «الدرر السنية» ذلك ، هو مثل الذين يتطهرون بالنبي ﷺ ، كما قال الله عنهم : ﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ

مِنْ عِنْدِكَ ﴿[النساء: ٨٧]﴾ .

وقال تعالى: ﴿وَأِنْ تُصِيبْهُمْ سَيْئَةٌ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ﴾ ﴿[الأعراف:

١٣١]﴾ .

فيجعلون سبب الشر أهل الصلاح والدعوة إلى الله، فلا غرابة في ذلك .

والدرر السنية موجودة، فلينظر فيها، هل فيها إرهاب أم توحيد؛ بل فيها خير ولله الحمد، فيها التوحيد، وفيها إنكار للشرك، وفيها النصيحة والموعظة، فلا نسمع كلام المغرض؛ بل نرجع إلى الدرر السنية، ونقرأ فيها، وسيفتضح هذا القائل .

س٣: يوجد من يقول: لا تدعوا الناس إلى التوحيد فهم موحدون؟

الجواب: ليس كل الناس موحدين، والموحدون منهم ندعوهم للتوحيد من أجل التأكيد والتثبيت، والموحد عليه خطر من شبهة أهل الضلال، فنحن نحصنهم .

وهل توحيد هؤلاء أعظم من توحيد إبراهيم الخليل ﷺ الذي يقول الله عنه: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ ﴿[إبراهيم: ٣٥]﴾ . خاف على نفسه، فكيف لا نخوف هؤلاء من الشرك أن يروج بينهم، ونبينا مُحَمَّد ﷺ يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»^(١) . وهو رسول الله ﷺ .

(١) رواه الترمذي في سننه برقم (٢١٤١) من حديث أنس رضي الله عنه، وانظر: صحيح الإمام مسلم برقم (٢٦٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه .

فلا أحداً يَأْمَنُ على نفسه، ولا أحد يزكي نفسه، ويقول: أنا موحد
ولست بحاجة إلى التوحيد؛ بل أنت بحاجة إلى معرفة التوحيد، ومعرفة
الشرك، فقد يلبس عليك، وقد يعرض عليك شبهة فلا بد أن
تُحصن من هذه الأمور.

س ٤: عرفنا الآن هذه السهام المغرضة، فما موقفنا منها؟

الجواب: موقفنا تعلُّم العلم النافع، فلا يُمكن أن نتخلص من هذه
السهام إلا إذا تعلمت العقيدة، وفهمتها ودرستها على العلماء، حينئذ
أخذت السبب بإذن الله، أما إذا بقيت على جهلك؛ فإن هذه السهام
تنفذ إلى قلبك؛ لأنك لا تدري ولا تعلم، وهذا ممَّا يدل على ضرورة
تعلُّم التوحيد.

س ٥: كيف السلامة من الفتنة، وخصوصاً فتنة النساء؟

الجواب: السلامة من فتنة النساء في غض البصر، وأن تبتعد عن
ملاحظة النساء ومتابعتهم، قال الله -جل وعلا-: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ
يَعْضُوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَحَبْطُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾
[النور: ٣٠].

فغض بصرك عمَّا حرم الله، ولا تدخل في الأمكنة التي فيها فتنة
لتسلم منها، هذا من أسباب السلامة من الفتنة.

ومن أعظم السلامة من الفتن: تعلم العلم النافع الذي به تعرف كيف
تتخلص من هذه الفتن، ولهذا قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: «كان الناس
يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن

يدركني ، فقلت : يا رسول الله ، إنا كنا في جاهلية وشر ، فجاء الله بهذا الخير ، فهل بعده من شر؟ فقال : نعم .

قلت : وهل بعد هذا الشر من خير؟ قال : نعم ، ولكن فيه دخن .

قلت : وما دخنه؟ قال : قوم يَهْتَدُونَ بغير هديي ، ويستنون بغير سنتي .

قلت : وهل بعد هذا الخير من شر؟ قال : نعم ، دعاة على أبواب جهنم من أطاعهم قذفوه فيها .

قلت : فما تأمرني يا رسول الله إن أدركني ذلك؟ قال : تلزم جماعة المسلمين وإمامهم .

قلت : فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال : فاعتزل تلك الفرق كلها ، ولو أن تعض على أصل شجرة ، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك^(١) . هذه أسباب السلامة من الفتن .

س٦ : ما الفرق بين المشيئة والإرادة؟

الجواب : الإرادة أعم من المشيئة ؛ لأن الإرادة تنقسم إلى قسمين :
إرادة كونية ، وإرادة دينية شرعية .

أما المشيئة فلا تكون إلا كونية ، ولا يوجد مشيئة شرعية .

س٧ : أنا أريد أن أجاهد في العراق ، وهناك من يقول : إن الجهاد في

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم (٧٠٨٤) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه .

العراق جهاد دفع، فلا بد من إذن الوالدين وولي الأمر؟

الجواب: الجهاد له شروط وله ضوابط، فهل تنطبق على الجهاد في العراق، أو لا تنطبق، فأنا أريد منك أن تتعلم أحكام الجهاد أولاً، تتعلم شروطه وضوابطه، حتى تعرف متى تُجاهد، ومتى لا تُجاهد، وهذا مذكور في كتب العلم، وكتب الحديث والتوحيد، ومبين وموضح بضوابطه وشروطه، فلا تذهب دون أن تتعلم هذا، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى: طاعة والديك بعد طاعة الله، قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦].

وذهابك للجهاد، إذا كان هناك جهاد ذهابك إليه مستحب، وطاعة والديك فرض، فكيف تقدم المستحب على الفرض؟!

س ٨: هل التوسل بالنبي ﷺ عند قبره مشروع، وما معنى قول الله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]؟

الجواب: لا يوجد دليل من الكتاب والسنة على جواز التوسل بذات النبي ﷺ حياً أو ميتاً.

أما التوسل بدعائه في حياته فجائز، وبعد موته لا يجوز، فالصحابة -وهم أعلم الأمة- إذا أجدبوا ما ذهبوا إلى قبر النبي ﷺ، وطلبوا منه أن يدعو الله لهم بعد موته؛ وإنما طلبوا من العباس؛ لأن العباس حي وحاضر.

ولا شك أن النبي ﷺ أفضل من العباس ، فلماذا عدلوا من الفاضل إلى المفضول؟ لأن الفاضل في هذه الحالة لا يجوز الذهاب إليه ؛ لأنه ميت ، والمفضول حي يقدر على الدعاء ، فالصحابة أعلم الأمة بذلك .
وأما قوله -جل وعلا- : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ﴾ الآية .

هذا في واقعة حصلت لبعض المنافقين أنهم أرادوا التحاكم إلى كعب بن الأشرف اليهودي ، وكانت حكومة بين يهودي وبين منافق ، فقال اليهودي : نتحاكم إلى مُحَمَّد لعلمه أنه لا يأخذ الرشوة ، وقال المنافق الذي يزعم أنه مؤمن نتحاكم إلى كعب بن الأشرف اليهودي ؛ لأنه يأخذ الرشوة ، فأنزل الله هذه الآية .

قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ إلى قوله : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء : ٦٠-٦٤] .

وقوله ﴿إِذْ ظَلَمُوا﴾ : فيما مضى ، ولم يقل : إذا ظلموا للمستقبل ؛ بل قال : ﴿إِذْ ظَلَمُوا﴾ في السابق في حادثة حصلت في حياة الرسول ﷺ : ﴿جَاءُوكَ﴾ وطلبوا منك الاستغفار ، واستغفروا عندك : ﴿لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ .

فهذا في حياة النبي ﷺ ، وأما الذي يقول : إنه بعد موته ، فهذا غير

مراد، فما كان الصحابة يذهبون إلى قبره ويستغفرونه، وهم أعلم الأمة.
وإنما المراد: أن تستغفر الله في أي مكان، ولا تذهب إلى القبر؛
لأن هذا وسيلة من وسائل الشرك.

س٩: قرأت لفضيلتكم، وسمعت عنكم، أنكم تعدون من حُكم
القوانين الوضعية، أنه من الكفر الأكبر؟ وما هي نصيحتكم لهؤلاء؟
جزاكم الله خيرًا.

الجواب: هؤلاء بتروا الكلام، وأخذوا بعضه وتركوا بعضه، وهذه
عادة أهل الضلال، أنهم يأخذون ما يصلح لهم، ويتركون الذي
لا يصلح لهم.

أنا فضّلت مثلما فضّل العلماء في مسألة الحكم بغير ما أنزل الله، فتارة
يكون كفرًا مُخرجًا من الملة، وتارة يكون كفرًا أصغر لا يُخرج من الملة.
وقلت: إن الذي يقصي الشريعة نهائيًا، ويجعل بدلها القانون هذا
دليل على أنه يرى أن الشريعة لا تصلح؛ ولذلك استبدلها بالقانون،
وإذا رأى أن الشريعة لا تصلح فلا أحد يقول: إنه ليس بكافر، فإذا رأى
أنها لا تصلح فهو كافر.

س١٠: حديث الرسول ﷺ: «أخرجوا المُشركين من جزيرة
العرب»^(١). ما المقصود بهذا الحديث؟

(١) الحديث متفق عليه من حديث ابن عباس رضيهما الله عنهما بهذا اللفظ. أخرجه البخاري برقم
(٣١٦٨)، ومسلم (١٦٣٧).

الجواب:

أولاً: هذا فيه تفصيل، والذي يُخاطب به هم ولاية الأمور الذين يستطيعون أن يخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وليس المُخاطب به الأفراد؛ ولذلك الصحابة لَمْ يُخرجوا المشركين، وإنما الذي أخرجهم هو عمر بن الخطاب ولي أمر المسلمين ﷺ^(١). فهذا من صلاحيات ولي الأمر.

ثانياً: المُراد من الحديث: لا تتركوهم يستوطنون ويسكنون في جزيرة العرب، أما أنهم يأتون لمهمات ويرجعون لبلدهم، فهذا كان موجوداً على عهد النبي ﷺ فإذا جاءوا مقاولين، أو لأعمال لا يُحسنها إلا هم فتتعاقد معهم، وإذا انتهى عملهم يسافرون إلى بلدهم . . .

فهذا لا يدخل في حديث: «أخرجوا المُشركين من جزيرة العرب»^(٢). بدليل أنهم كانوا يأتون إلى رسول الله ﷺ بالرسائل، ويتفاوضون معه، وكان المسلمون يتعاقدون معهم العقود، فيدخلون البلد بأمان.

وقال ﷺ: «من قتل معاهداً لَمْ يرح رائحة الجنة»^(٣). فَلَمْ يأخذون حديث: «أخرجوا المُشركين من جزيرة العرب». ولا يأخذون: «من

(١) انظر: صحيح الإمام البخاري برقم (٣١٥٢)، ومسلم في صحيحه برقم (١٥٥١) برواياته كلها، كلاهما من حديث عبد الله بن عمر ﷺ (٣٩٦٧).

(٢) تقدم تخريجه قريباً.

(٣) رواه الإمام البخاري في صحيحه برقم (٣١٦٦) من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ.

قتل معاهدًا لَمْ يَرَحْ رائحة الجنة»^(١)؟

لكن كما قلت لكم أهل الزيف وأهل الضلال يأخذون ما يصلح لهم، ويتركون الذي لا يصلح لهم.

س ١١ : سَمِعْنَا أَنْ تَرَكَ عَمَلَ الْقَلْبِ كُفْرًا ، أَمَا تَرَكَ عَمَلَ الْجَوَارِحِ فَلَيْسَ كَذَلِكَ ، نَرْجُو تَوْضِيحَ ذَلِكَ ؟

الجواب : هذا قول المرجئة ، ومذهبهم باطل ؛ لأن الإيمان عند أهل السنة والجماعة يتكون من أشياء : قول باللسان ، واعتقاد بالقلب ، وعمل بالجوارح ، يزيد بالطاعة ، وينقص بالمعصية ، هذا الإيمان .

أما الذي يقول : إن الإيمان في القلب فقط ، ولو لَمْ يَعْمَلْ شيئًا ، وأن العمل لا يدخل في الإيمان ؛ فهذا مذهب المرجئة .

س ١٢ : مَا هِيَ الطَّرِيقَةُ الَّتِي نَتَعَلَّمُ بِهَا الْعَقِيدَةَ الصَّحِيحَةَ ؟ وَمَا هِيَ الْكُتُبُ الَّتِي تَنْصَحُونَ بِهَا الْمُبْتَدِئِينَ ؟ وَجَزَاكُمُ اللَّهُ خَيْرًا .

الجواب : الكتب - ولله الحمد - كثيرة ؛ ولكن الشأن في المدرسين الذين يُدرسون الكتب ، أنا أقول : إن الطالب إما أن يكون في الدراسة النظامية في المدارس والمعاهد ، والكليات ، فهذا يدرس المقررات .

ومقرر التوحيد يَمْشِي معه من أول ابتدائي إلى الجامعة ، فيتدرج في تعلم العقيدة حَتَّى يَخْرُجَ مِنَ الجامعة فهذا يكفي ، ولله الحمد ، فالكتب معه ، والمدرسون عنده ، وليس عليه إلا أن يقبل على تعلم

(١) رواه الإمام البخاري في صحيحه برقم (٣١٦٦) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه .

التوحيد حتّى يفهم التوحيد .

القسم الثاني: الذين ليسوا في المدارس ، ولا المعاهد ، ولا الكليات ؛ هؤلاء يتجهون إلى العلماء في الحلقات في المساجد على أيدي العلماء ، والكتب كثيرة ، ولله الحمد ، المبتدئة والمتوسطة ، والمطولة ؛ لكن الشأن في المدرس هذا هو المطلوب .

س ١٣ : كيف نجمع بين الخوف والمحبة في العبادة ؟

الجواب : نعم ، يُجمع بينهما كما قال تعالى : ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦] .

فالله ذكر هذا ، أنّهم يجمعون بينهما خوفًا من عقابه وطمعًا في ثوابه ، أما الذي يأخذ الخوف فقط ، فهذا خارجي ، والذي يأخذ الرجاء فقط فهذا من المرجئة ، وأما الذي يجمع بين الخوف والرجاء فهذا هو التوحيد ، وهذا هو المؤمن .

قال تعالى : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي : الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - : ﴿وَيَدْعُوكَ رَغْبًا وَرَهْبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠] . رغبًا في الخير ، ورهبًا من الشر ، فيجمعون بينهما ، ولا يأخذ جانبًا ويترك الجانب الآخر ، والصوفية يأخذون جانب المحبة ، ويتركون جانب الخوف والرجاء .

س ١٤ : أريد أن أشعر بلذة الصلاة والذكر ، علمًا بأنني أصلي

الصلوات الخمس ؟

الجواب : قال ﷺ : «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه ، كما يكره أن يقذف في النار»^(١).

فإذا اجتمعت هذه في المؤمن وجد حلاوة الإيمان ، وفي أثر ابن عباس رضي الله عنهما : من أحب في الله ، وأبغض في الله ، ووالى في الله ، وعادى في الله ؛ فإنما تنال ولاية الله بذلك ، وقد صارت مؤاخاة عامة الناس على أمر الدنيا ، وذلك لا يُجدي على أهله شيئاً .

* * *

(١) رواه الإمام البخاري في صحيحه (١٦) من حديث أنس رضي الله عنه .

فهرس المصادر والمراجع

- ١- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط١-١٤٠٨هـ.
- ٢- حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصفهاني، دار الفكر.
- ٣- زاد المسير في علم التفسير، أبي الفرج ابن الجوزي، المكتب الإسلامي، ط٤-١٤٠٧هـ.
- ٤- سنن أبي داود، للإمام أبي داود، دار الريان - دار الحديث، القاهرة ١٤٠٨هـ.
- ٥- سنن الترمذي، للإمام الترمذي، المكتبة الإسلامية، تركيا.
- ٦- صحيح الإمام البخاري، دار السلام، الرياض، ط٢-١٤١٩هـ.
- ٧- صحيح الإمام مسلم، دار السلام، الرياض، ط١-١٤١٩هـ.
- ٨- صحيح الجامع الصغير وزيادته، للألباني، المكتب الإسلامي، ط٣-١٤٠٢هـ.
- ٩- كتاب السنة، لابن أبي عاصم، المكتب الإسلامي، ط١-١٤٠٠هـ.
- ١٠- كشف الشبهات، للإمام محمد بن عبد الوهاب بشرح الشيخ صالح بن فوزان الفوزان، مؤسسة الرسالة، ط١-١٤٢٢هـ.
- ١١- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للحافظ الهيثمي، دار الكتاب

العربي، بيروت، لبنان، ط٣-١٤٠٢هـ.

١٢- المُستدرك على الصحيحين، للحاكم، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

١٣- مسند الإمام أحمد، مؤسسة قرطبة، مصر - دار الراية، الرياض.

١٤- معالم التنزيل للبخاري، دار طيبة، السعودية، ط١-١٤٠٩هـ.

* * *

التكفير وضوابطه

مقدمة^(١)

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

كَمْ أَمَّا بَعْد :

فإن الموضوع موضوع مهم جدًا ، وقد كثر الخوض فيه قديمًا وحديثًا ، وهو مَضَلَّة أفهام ، ومَزَلَّة أقدام ، قد يُفْضِي إلى التناحر وتفرق الأمة .

ألا وهو موضوع : «التكفير ، والتبديع ، والتفسيق ؛ بغير علم وبصيرة» ولخطورته اهتم به العلماء ، فألفوا كتبًا في بيان نواقض الإسلام ، وحكم مرتكب الكبيرة التي هي دون تلك النواقض ؛ من أجل درء الخطر عن هذه الأمة ، وبيان الحق من الباطل في هذا الباب كي لا يتكلم فيه من لا يُحسنه أو يدخل فيه من لا يتقن ضوابطه وأصوله ، أو يتساهل في شأنه من ليس عنده غيرة على دين الله فتتسرب العقائد الفاسدة والنحل الضالة إلى دين الله ، فيلتبس الحق بالباطل ، ويُحسب على الأمة من ليس منها ، ويدخل في الدين ما ليس منه .

(١) أُلْقِيَتْ هَذِهِ الْمُحَاضَرَةُ بِمَدِينَةِ الْجَبِيلِ بِجَامِعِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَارِيخِ ١٤/٣/

وهذا الباب لا يجوز أن يتكلم فيه من ليس عنده علم ومعرفة وبصيرة، ولا يُحكم بالكفر إلا على من كفره الله ورسوله؛ لارتكابه ناقضاً من نواقض الإسلام المُجمع عليها بين أهل العلم، ومن ثمَّ يجب على المسلم أن يتعلم قبل أن يتكلم، وألا يتكلم إلا عن علم، وإلا فإنه إذا كفر مسلماً يكون قد ارتكب جريمتين عظيمتين إحداهما أعظم من الأخرى:

وهي: أنه قال على الله بغير علم، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٢١].

وقال ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

فجعل القول على الله بغير علم أشد من الشرك؛ لأنه ذكره بعد الشرك، وقال ﷻ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

فحينئذٍ لا بد أن يتعلم الإنسان قبل أن يتكلم، والعلم قبل القول وقبل العمل، قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩].

فدل أن العلم يكون قبل القول وقبل العمل، فالقول الذي لا ينبنى على علم خصوصاً في أمور الدين، وخصوصاً في أمور العقيدة: قول باطل، وكذب على الله ﷻ، هذه هي الجريمة الأولى الخطيرة، وهي

القول على الله بلا علم .

الجريمة الثانية : أنه جنى على هذا المسلم ، فحكم عليه بالكفر وأخرجه من الإسلام ، وهذا يترتب عليه أحكام ؛ يترتب عليه أن زوجته تفارقه فلا تجلس معه ، ويترتب عليه أنه لا يرث ، ولا يورث ، ويترتب عليه أنه إذا مات لا يغسل ، ولا يكفن ، ولا يُصلى عليه ، ولا يُدعى له ، ولا يُدفن في مقابر المسلمين .

فالذي حكم عليه بالكفر بغير حقٍّ يتحمل هذه الأمور كلها ؛ لأنها تنبني على كلامه وعلى قوله ، فلا بد من أن يتعلم الإنسان ما هي الأشياء التي تقتضي الكفر والردة ، لا بد أن يتعلم ، ولا يتكلم بجهل ، أو يرى أن كل من خالفه في رأيه يكفر ، مع أنه لا يكفر إلا من قام الدليل على تكفيره من كتاب الله ، أو سنة رسوله ﷺ ، أو إجماع المسلمين .

والعلم بهذا من أين يؤخذ؟ هل يؤخذ العلم من الكتب ، ومن المطالعات ومن حفظ النصوص؟

لا ، العلم لا يؤخذ إلا عن أهل العلم ، وعن العلماء الربانيين الراسخين في العلم ، لا يؤخذ العلم عن الكتب قراءة ، أو مطالعة ، ولا يؤخذ من حفظ النصوص ، وإن كثرت النصوص المحفوظة ، فليس كل من حفظ النصوص بأن حفظ القرآن ، وحفظ كثيراً من الأحاديث يكون عالماً ، لا يكون بذلك عالماً ؛ إنما العالم هو الفقيه .

والعلم هو الفقه في دين الله ﷻ ، وهذا لا يكون إلا بالتعلم والتلقي عن الفقهاء ، وعن أهل العلم الذين يبينون له معنى هذه النصوص التي

حفظها وطالعتها، وقد يكون فهم فهمًا بعيدًا لا علاقة له بكتاب الله، أو سنة رسوله ﷺ، ولو رجع لأهل العلم لتبين له أنه قد أساء الفهم وغلط في تصويره؛ إذ كان يجب عليه الرجوع إلى أهل العلم، وتلقي العلم النافع عنهم حتى يكون الإنسان على بصيرة بما يقول، وبما يعمل، وبما يحكم به.

ثم أيضًا إذا تعلم وفقه في دين الله، وعرف نواقض الإسلام، وما هي الأشياء التي تخرج عن الإسلام فلا بد أن يتثبت في حق الشخص قبل أن يحكم عليه، ويُصدر عليه الحكم بالكفر، أو بالشرك، أو بالخروج من الدين، لا بد أن يتثبت في تطبيق الحكم الشرعي على هذا الشخص، فينبغي أولاً التثبت في هذا.

وقد خرج جماعة من الصحابة رضي الله عنهم في بعض الأسفار فمر عليهم رجل يسوق غنمًا فقال: السلام عليكم، فبادروه بالقتل على ظنهم أنه كافر، وأخذوا غنمه فتسرعوا في ذلك فأنزل الله -جل وعلا- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَقَاتِلُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ أَسْلَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ أَكُنْتُمْ عَلَىٰكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ٩٤^(١)]. فلامهم ﷺ وهم صحابة رسول الله ﷺ لما تسرعوا، فالواجب التثبت، وعدم

(١) وانظر: صحيح الإمام البخاري (١٨٣/٥) تفسير سورة النساء، باب: ﴿فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ أَسْلَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾.

التسرع في الحكم على الناس إلا عن بصيرة وروية .

وقامت جماعة من الصحابة في غزوة من الغزوات ، وفيهم أسامة بن زيد - رضي الله عنه وعن أبيه - حب رسول الله وابن حبه ، فحصلت المعركة بينهم وبين المشركين ، وهرب رجل من المشركين فلحق به أسامة ورجل من الأنصار يريدون قتله ، ولما أدركوه قال : لا إله إلا الله ، فلما قال لا إله إلا الله ، كف عنه الأنصاري ؛ لكن أسامة رضي الله عنه ظن أنه ما قالها إلا ليتقي بها القتل ؛ فقتله ظنًا منه أنه إنما قالها ليتقي بها السيف ، ولم يقلها صادقًا ، فلما قدم على رسول الله ﷺ قال له ﷺ : «أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله ؟ ماذا تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟ ثم رد عليه : أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله ؟ ثم رد عليه الثالثة : أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله ؟ قال : يا رسول الله ، إنما قالها ليعوذ بها من السيف . قال : هلاً شققت عن قلبه حتى تعلم أنه قالها تَعَوِّذًا ؟ ماذا تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟ . قال أسامة رضي الله عنه : فتمنيت أنني لم أسلم قبل ذلك»^(١) من شدة ما رأى من إنكار رسول الله ﷺ عليه ، فدل على وجوب التثبت في الأمور ، وعدم التسرع في الحكم على الناس .

لابد أن يكون الحكم عن علم ، ولا بد أن يحصل التثبت في حال الشخص ؛ فمن أظهر الإسلام ونطق بالشهادتين ؛ وجب الكف عنه كما

(١) رواه الإمام البخاري في صحيحه (٢١٤٣/٤) ، برقم (٦٨٧٢) كتاب الديات ، باب :

قول الله تعالى : ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ [المائدة: ٣٢] . من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه .

تدل عليه هذه القصة العظيمة حَتَّى يحصل منه ما يناقض الإسلام: كأن يشرك بالله، أو يدعو غير الله، أو يرتكب ناقضاً من نواقض الإسلام المعروفة عند أهل العلم فحيثُ يُحكم عليه بالردة.

وما دام لَمْ يظهر منه شيء يُخالف الإسلام، فإنه يُحسن به الظن ويُحكم بإسلامه، ولو حصل منه بعض المخالفات التي هي دون الشرك، ودون الكفر، كما لو حصل منه ذنب أو معصية فإنه لا يُحكم بكفره حَتَّى يرتكب ناقضاً من نواقض الإسلام المعروفة عند أهل العلم، ولا يكون له عذرٌ، فقد يكون جاهلاً، وقد يكون حديث عهد بالإسلام، ما عرف أن هذا الشيء كفر.

ولما خرج النبي ﷺ إلى غزوة حنين بعد فتح مكة خرج معه أناس من أهل مكة حدثاء عهد بالإسلام، منهم: أبو واقد الليثي ؓ - يعني: أسلموا قريباً - فرأوا المشركين اتَّخذوا سدرية يعكفون عندها، وينوطون بها أسلحتهم - يقال لها: ذات أنواط - يتبركون بها، ويعكفون عندها، اعتقاداً أن فيها بركة، ويُعلقون بها أسلحتهم يتبركون بها، فقال هؤلاء النفر - الذين هم حدثاء عهد بالإسلام - : يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فالرسول ﷺ لَمْ يَحْكَمْ عليهم بالكفر لجهلهم؛ بل قال رسول الله ﷺ: «الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر!! إنها السنن، قلتُم - والذي نفسي بيده - كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ» [الأعراف: ١٣٨] ^(١).

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٢٢٥/٦)، برقم (٢١٨٩٧)، ورواه الترمذي في سننه (٤١٢/٤)، برقم (٢١٨٠) كتاب الفتن، باب: ما جاء: «التركيب سنن من كان قبلكم». كلاهما من حديث أبي واقد الليثي ؓ.

فالرسول ﷺ أنكر عليهم، وبيّن أن مقالاتهم هذه مثل مقالة بني إسرائيل لموسى؛ ولكن لما كانوا لا يعرفون الحكم؛ بيّن لهم ﷺ ذلك، وأنه من الشرك، لكن نظرًا لكونهم جهالًا عذرهم بالجهل، ولم يحكم عليهم بالكفر، وكل من كان حديث عهد بالإسلام، ولم تتح له الفرصة ليتعلم أحكام الإسلام، وحصل منه ما حصل - حتى ولو كان ظاهره الشرك والكفر - فإنه يُبيّن له، ويشرح له الإسلام، وتُبيّن له نواقضه، فإن أصر ولم يترك هذا الشيء؛ حُكم بكفره.

فهذه الأمور يجب التثبت فيها؛ لأنه رُبّما يكون الذي يصدر الحكم بالكفر جاهلًا يصدر الأحكام على الناس عن جهل، ورُبّما يكون المَحْكوم عليه جاهلًا لا يستحق هذا الحكم حتى يُبين له، الأمور لا بد فيها من تثبت، ولا بد فيها من روية، ورجوع إلى أهل العلم، وسؤال أهل العلم عن هذا الشيء، وعن هذا الشخص، كيف يُحكم عليه.

وليس من حق كل أحد من الطلبة المبتدئين والقراء، ليس من حقهم أن يكفّروا ويُخرجوا الناس من الدين وهم لا يعرفون نواقضه، فالأمر خطير جدًا.

فعلى كل من وقع في شيء من ذلك أن يتوب إلى الله ﷻ، وأن يكفّ لسانه عن التكفير، وأن يتعلم قبل أن يتكلم، وأن يسأل أهل العلم، ويتفكر في الأمر، وينظر في حال الشخص: هل هو معذور أم غير معذور؟ فالأمر تحتاج إلى تفصيل، وتحتاج إلى فقه في الدين؛ ولأن تقتل شخصًا - مع أن القتل بغير حق جريمة عظمى - أخف من أن تحكم

عليه بالكفر. وقتل المؤمن عمداً فيه الوعيد الشديد: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾ [النساء: ٩٢].

هذه حرمة الدم، وحرمة الدين أعظم، فكونك تُخرجه من الدين، وتُخرجه من الإسلام أشد من قتله عند الله ﷻ، لو أخذت ماله كله، وصادرته هذا حرام، قال ﷺ: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام»^(١). لو أخذت ماله كله ظلماً وعدواناً، فإن ذلك أخف من أن تحكم عليه بالكفر والردة، وهو لا يستحق ذلك.

واعلم أنك إذا حكمت على شخص بالردة، أو بالكفر، أو قلت: يا كافر، يا عدو الله، يا منافق، وهو لا يستحق هذا؛ فإن كلامك يرجع عليك كما جاء في الحديث: «من قال لأخيه: يا كافر، أو: يا منافق، أو: يا خبيث، أو: يا عدو الله، وهو ليس كذلك؛ إلا حار عليه»^(٢).

أي: أن إثم هذا الكلام القبيح يرجع إلى القائل، ولا يرجع إلى المقول فيه إذا كان لا يستحق ذلك، فأنت إنما تَجني على نفسك، فاتق الله أيها المسلم، واحفظ لسانك ولا تحكم بالكفر على من لا يستحق الكفر، ولا تتسرع في الأمر، وراجع أهل العلم والبصيرة في هذا الأمر قبل أن تصدر الحكم على أحد بالكفر ممن ظاهره الإسلام.

(١) رواه الإمام البخاري في صحيحه (٦١/١)، برقم (١٠٥) كتاب العلم، باب: ليلغ العلم الشاهد الغائب من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه (٧٩/١)، برقم (١١٢) كتاب الإيمان، باب: بيان حال إيمان من رغب عن أبيه وهو يعلم، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

وأول من وقع في تكفير الأمة هم: الخوارج؛ والخوارج ظهرت ففنتهم على عهد النبي ﷺ، حيث جاء رجل منهم إلى النبي ﷺ وهو يقسم الفيء -أي: يقسم الغنائم بعد رجوعه من حنين- فقال له هذا الرجل: «يا مُحَمَّد، اعدل، فإنك لَمْ تعدل». فقال: ويلك، ومن يعدل إذا لَمْ أعدل؟! ثُمَّ قال ﷺ: سيخرج من ضئضئ هذا أناس تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وتحقرون صيامكم مع صيامهم، يَمرقون من الإسلام كما يَمرق السهم من الرمية»^(١).

مع كثرة صلاتهم، وصيامهم، وقراءتهم للقرآن، وذكرهم لله؛ لكن لما صاروا يُكفرون المسلمين حكم عليهم النبي ﷺ بالمروق من الدين؛ لأنهم يُكفرون من لا يستحق الكفر، فمن حكم على أحد بالكفر، وهو ليس كذلك، فإنه من هؤلاء، من الخوارج الذين قال ﷺ: «أينما لقيتموهم فاقتلوهم»^(٢)، «لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد»^(٣).

وفي خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ لما حصلت المعركة بينه وبين أهل الشام في صفين طلب أهل الشام التحكيم، ورفعوا المصاحف على الرماح، يريدون أن يرجعوا إلى القرآن، فقال علي ﷺ: إن هذه خدعة، فقام الخوارج، وكانوا موجودين في جيش علي ﷺ فقالوا: لا بد أن نتوقف عن قتالهم، قال علي ﷺ: إنما هي خدعة. قالوا: لا، لا بد أن نتوقف عن قتالهم، فوقف عن قتالهم، ثُمَّ شكلوا رجلين من الصحابة للحكم بينهم، فلما حكموا، وَلَمْ يَرْضَ

(١) رواه الإمام البخاري في صحيحه (ص ١٧٢، برقم ٦١٦٣) كتاب الأدب، باب: ما جاء في قول الرجل: ويلك. ط دار السلام - الرياض.

(٢) عند البخاري برقم (٦٩٣٠) عن علي ﷺ.

(٣) عند البخاري برقم (٣٣٤٤) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

الخوارج بحكمهم؛ خرجوا على علي وكفروه، قالوا: إنك حَكَمْتَ الرجال. والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٦٧]. حَكَمْتَ الرجال، فأنت كافر، فكفروا علياً عليه السلام، وكفروا أصحابه، وخرجوا عن طاعته، واجتمعوا في مكان يقال له: حروراء.

فأرسل إليهم علي عليه السلام ابن عمه عبد الله بن عباس عليه السلام، فناظرهم عبد الله بن عباس، وأجاب عن شبهاتهم، وبيّن خطأهم، فرجع منهم ستة آلاف، وبقي أكثرهم مصرّين على ضلالهم، وعلى تكفير أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ومن معه من الصحابة، هذا أول مبدأ التكفير، فقاتلهم علي عليه السلام في موقعة النهروان فنصره الله عليهم، وقتل منهم مقتلة عظيمة، فقال بذلك الأجر الذي أخبر به رسول الله صلى الله عليه وآله ^(١).

هذا أول تكفير في الإسلام، ولكن لا يزال الخوارج يظهرون في كل وقت، ويكفّرون المسلمين، وما زال المسلمون يقتلونهم، كلٌّ من ظهر منهم قُتل، ولله الحمد.

ظهروا في عهد معاوية عليه السلام، وظهروا في عهد عبد الملك بن مروان، وظهروا في أوقات مُختلفة في دول الإسلام، وكلما ظهروا نصر الله المسلمين عليهم، وهم كما قال النبي صلى الله عليه وآله: «يقاتلون أهل الإيمان ويتركون أهل الأوثان» ^(٢)، فلا يقاتلون الكفار؛ ولكن يقاتلون المسلمين.

هذا حال الخوارج في كل وقت، فمن تبَيَّنَ هذا المذهب، وكفّر

(١) انظر: «تاريخ الطبري» (٧٢/٥) وما بعدها، ثم انظر (ص ٨٥-٨٨) وما بعدها.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَلْبَسُونَ أَثَامَهُمْ هُدُوءًا﴾. برقم (٣٣٤٤، ص ٥٥٧) ط دار السلام، الرياض.

المسلمين، وكفّر حكام المسلمين، أو كفّر علماء المسلمين، فإنه من هذه الطائفة الضالة، يجب قتالهم؛ لكن بعد أن يُدعوا إلى الرجوع إلى الحق، فإن أصرّوا فإنّهم يقاتلون كما قاتلهم علي بن أبي طالب عليه السلام ومن جاء بعده من ولاة أمور المسلمين.

فهذه ظاهرة خطيرة، وظاهرة سيئة يجب على المسلم أن يخاف الله تعالى وألاّ يحكم بالردة أو بالكفر على أحد بدون روية، وبدون تثبيت وبدون علم.

العلماء لا يكفّرون إلا من كفّره الله ورسوله، والراسخون في العلم لا يحكمون بالكفر إلا على من ثبت كفره، وتبين كفره في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله.

أما الجُهاال والمُتسرعون، وأنصاف المُتعلّمين: فإن أرخص شيء عندهم التكفير؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله!! وكل من خالف رأيهم، أو خالف مذهبهم حكموا عليه بالتكفير، هذه صفة قبيحة، وصفة ذميمة.

ظاهرة التكفير زلة عظيمة يجب على من يخاف الله تعالى أن كان جاهلاً فلا يجوز له الكلام بغير علم، وإن كان عالماً فيجب عليه أن يتثبت ولا يقدم على هذا الحكم الخطير إلا بعد تثبيت وروية والتأكد من أن هذا الشخص أو هذه الفئة أنّها خارجة عن الإسلام.

فيجب على المسلم أن يُمسك لسانه عن هذا الأمر الخطير: فلا يُجالس ولا يصاحب من هذه صفائهم، لا يُجالس هذه الطائفة

المارقة التي تُكفر المسلمين؛ لأنه إذا جالسهم صار مثلهم؛ بل عليه أن يفارقهم، وأن يبتعد عنهم.

في غزوة تبوك جلس بعض المنافقين يتحدثون فيما بينهم، فتحدثوا في الرسول ﷺ وأصحابه، فقالوا: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أكذب السنة، ولا أرغب بطوناً، ولا أجبن عند اللقاء -يعنون: رسول الله ﷺ وأصحابه- وكان شاب من المؤمنين حاضراً معهم، وقال للمتكلم: كذبت؛ ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ.

أنكر عليهم لما في قلبه من الإيمان والغيرة على دين الله، ثم ذهب ليخبر الرسول ﷺ فوجد الوحي قد سبقه، ونزل على الرسول ﷺ، فأخبر الله تعالى الرسول ﷺ بما قالوه قبل أن يصل إلى الرسول ﷺ هذا الشخص.

والرسول ﷺ لما نزل عليه الوحي في شأن هؤلاء أمر بالرحيل من هذا المكان، فرحلوا وركب النبي ﷺ راحلته.

وجاء هؤلاء إلى الرسول ﷺ يعتذرون، ويقولون: يا رسول الله! إنما هو حديث الركب، إنما قلناه نسهل به عناء الطريق.

والرسول ﷺ لا يلتفت إليهم، وهم متعلقون بنسعة ناقة الرسول ﷺ، يقولون: يا رسول الله، إنما هو حديث الركب نسهل به عناء الطريق، والرسول ﷺ لا يلتفت إليهم، ويتلو قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

ولا يلتفت إليهم، ولا يزيد على ما قاله الله ﷻ^(١).

الشاهد من هذا: أن الذي تكلم في هذا المجلس واحد والباقون ساكتون لم ينكروا عليه، فحكم الله عليهم بالكفر جميعاً، ما عدا هذا الذي قام واستنكر الأمر وذهب إلى الرسول ﷺ.

الحاصل: أن الأمر خطير فلا يجوز للإنسان أن يُجالس، أو يُصاحب، أو يرافق هذه الطائفة المارقة التي تكفر المسلمين، وتكفر ولاية أمور المسلمين من غير بصيرة، ومن غير علم، ويستحلون دماء المسلمين وأموالهم؛ فعلينا أن نبتعد عنهم، وألاً نستمع إلى أقوالهم، وأن ننبذهم ونبتعد عنهم، ولا نُجالسهم، هذا عن قضية التكفير.

أما قضية التبديع: فالتبديع مأخوذ من البدعة، والبدعة في اللغة: ما أحدث على غير مثال سابق، ومنه قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٠١]. أي: موجدتهما على غير مثال سابق، حيث أوجد الله السموات والأرض من العدم.

أما البدعة في الدين: فهي ما أحدث في الدين من غير دليل من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ؛ لأن العبادات توقيفية - ما يُفعل منها شيء إلا بدليل - وليست العبادات مجالاً للاستحسان والرأي، ما كان عليه دليل من كتاب الله، ومن سنة رسول الله ﷺ فهو الدين، وهو العبادة، وما لم يقم عليه دليل فإنه بدعة.

(١) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ١٧١) وما بعدها.

قال ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»^(١).

وفي رواية: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد»^(٢).

وقال ﷺ: «إن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة»^(٣).

وفي رواية: «وكل ضلالة في النار»^(٤)؛ وذلك لأن الله تعالى أكمل الدين، وليس بحاجة إلى الزيادة، ما توفي الرسول ﷺ إلا وقد أكمل الله به الدين.

قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. هذا نزل على الرسول ﷺ وهو واقف بعرفة يوم الجمعة في حجة الوداع، أنزل الله عليه هذه الآية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. وعاش النبي ﷺ بعدها واحداً وثمانين يوماً، وتوفي ﷺ. فما توفي ﷺ إلا وقد أكمل الله به الدين.

(١) رواه مسلم موصولاً من حديث عائشة رضي الله عنها: في كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة وردد محدثات الأمور: ٣/١٣٤٣ (١٧١٨) (١٨).

(٢) رواها الإمام البخاري في صحيحه (٢/٨١٩)، برقم (٢٦٩٧) كتاب الصلح، باب: إذا اصطلموا على صلح جور، فالصلح مردود، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) رواه الإمام مسلم في صحيحه (٢/٥٩٢) برقم (٨٦٧) كتاب الجمعة، باب: تخفيف الصلاة والخطبة.

(٤) رواها النسائي في سننه (٣/١٨٨، ١٨٩) كتاب صلاة العيد، حديث رقم (١٥٧٨) من حديث جابر رضي الله عنه.